

التخييل الذاتي واللاشعور الثقافي في رواية "سيرة المنتهى"

لواسيني الأعرج

*Self-fiction and the cultural unconscious in Wasini Al-A'raj's novel
"The Biography of the End"*

د. محمد حكيمي *

د. خديجة بن الأبقع *

تاريخ النشر: 2025/06/22	تاريخ القبول: 2025/05/26	تاريخ الإرسال: 2025/04/18
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

تتناول هذه الدراسة موضوع التخييل الذاتي، ذلك الشكل الإبداعي الحديث الذي أصبح سمة الإبداع الروائي المعاصر في الساحة الأدبية العالمية والجزائرية بشكل خاص، والذي يُعَوَّل عليه في كتابة السيرة الذاتية، يهيم به المبدع بقلم الكتابة الروائية في عوالم تخيلية، عوالم تتجاوز بالذات المبدعة حدود واقعها الكائن إلى الممكن، في ظل تمزيق المبدع للأحداث حياته الواقعية وخلط صفحات ذكرياته واستعماله لخاصية التخييل الذاتي في حركة تصحيحية جمالية لمعالم الذات المبدعة وواقعها، لا يكاد الروائي أن يخرج من الواقعي ويرتحل للخيالي حتى يجد نفسه يمارس لا شعوريا ثقافة معينة تحمل شفرات ثقافية خاصة، في شكل تداعي حر أو تنفيس إبداعي روائي يتكون شعوريا عن طريق الكتابة ولا شعوريا عن طريق انتهاك عوالم التخييل الذاتي.

الكلمات مفتاحية: التخييل الذاتي؛ اللاشعور الثقافي؛ الخلفية الثقافية؛ الأنساق

الثقافية؛ السيرة الذاتية؛ الذات؛ التاريخ؛ الرواية الجزائرية.

Abstract:

It dealt with the subject of the self-delusion and the cultural unconscious in the Algerian novel by addressing the concepts of self-delusion in the form of theoretical projection On the practical side in the novel biography of the

* المركز الجامعي مرسلبي عبد الله تيبازة / hakimi.mohamed@cu-tipaza.dz

* جامعة عمار ثلجي بالأغواط / k.benlabga.ar@lagh-univ.dz

end as a model, so proceeded to the definition of the concept of self-delusion and its relationship with novel Biography, noting that the creator can by self-delusion that goes beyond The reality, and overcome its cultural subconscious, identified as the reality of the Algerian novel of an act of self-delusion , so how this represents a creative act in the end-of-novel biography: of Wasini laaraj

Keywords : Self-delusion; cultural unconsciousness; Cultural background; Cultural formats; Cultural formats; Reality; novel biography, Algerian novel

*** **

مقدمة:

تتداخل الحقول الجمالية والإبداعية ببغضها البعض، وتتجاوز النصوص والأساليب في سماء الإبداع والكتابة الروائية، لذلك اتجه الكثير من الكتاب الجزائريين إلى فعل التخيل في كتابة السيرة الذاتية، ولما أصبح هذا الفعل سمة غالبية على الإبداع السيري المعاصر وسمنا مقالنا هذا بعنوان: التخيل الذاتي واللاشعور الثقافي في الرواية الجزائرية المعاصرة سيرة المنتهى لواسيني الأعرج أنموذجا، ذلك أننا اخترت هذه الرواية لأنها عبارة عن سيرة ذاتية استعمل فيها الروائي فعل التخيل الذاتي بشكل مكثف من أجل إعطائها طابعا جماليا ونوعا من التغريب لأحداث حياته الخاصة. فما هو مفهوم التخيل الذاتي وما علاقته برواية السيرة الذاتية؟ وهل يستطيع المبدع بفعل التخيل وتجاوزه لواقعه أن يتجاوز اللاشعور الثقافي الخاص به؟ وما هو موقع الرواية الجزائرية من فعل التخيل الذاتي وكيف تمثل هذا الأسلوب الجمالي في رواية سيرة المنتهى لواسيني الأعرج؟

1.1- التخيل الذاتي :

يعتبر التخيل بمثابة " فعل إبداعي معرفي ممتد الأطراف تتحرك فيه الذاكرة الإنسانية لتبدع من خلاله ما تعتقد أنه يلامس الحقيقة في بعض جوانبها ،وترى فيه نموذج لما تطمح إليه وترغب في تحقيقه ، ويمكن أن يكون في بعض الأحيان تعويضا عن الواقع المحدود الذي يتحرك فيه الإنسان ماديا " ¹ وتجاوزا له.

ويعود مفهوم التخيل الذاتي إلى أمر نظري وآخر إبداعي. فقد حدّد فيليب لوجون منذ سنة 1975 خصائص السيرة الذاتية معتمداً أساساً على ما سماه "الميثاق

السير ذاتي". وهو عنده شرط ضروريّ لوسم نصّ من النصوص بالسيرة الذاتية. وقوامه أن يجد القارئ على نحو ما تطابقاً بين أعوان السرد، أي الراوي والشخصية القصصية والمؤلف. ويقوم الاسم العلم دليلاً لغوياً على ذلك.

إلا أنّ لوجون وجد، وهو يقبّل النظر في العلاقات الممكنة بين أعوان السرد الثلاثة، في جدول اصطنعه للغرض خانتين فارغتين. إحداهما أن تكون سيرة ذاتية، ولكنّ الشخصية فيها مختلفة عن المؤلف والأخرى ألا يكون الميثاق روائياً وإن تطابق اسم المؤلف مع اسم الشخصية. ولكنه لم يجد في الوقائع الاختبارية، أي الأعمال الروائية أو السير الذاتية، ما يؤكّد هذين الاحتمالين النظريين².

بعد ذلك "برز اسم ناقد وجامعي وروائيّ فرنسي هو "سيرج دوبروفسكي". فقد أصدر سنة 1977 نصّاً أدبيّاً عنوانه بـ "ابن". وأضاف إشارة أجناسية تفيد أن كتابه ينتمي إلى جنس "التخيل الذاتي ويتواصل هذا التداخل بين الإبداع الأدبيّ ونقده النظري، إذ تحدّد دوبروفسكي نفسه التخيل الذاتي بخصائص ثلاث:

- أولاً: اعتبار التخيل من الرواية لا من السيرة الذاتية وإن كانت حياة الشخص تمثّل مادّة من موادّ الكتابة.

- وثانياً: اشتراط تطابق اسم المؤلف مع اسم الشخصية.

- وثالثاً: الاحتفاء في النصّ بالإيقاع والتجانس الصوتي وقد تبدو هذه الشروط هيّنة، لكنّ عالم الخطاب الذي يبنيه مؤلّف التخيل الذاتي يقتضي أن تصبح الكتابة مصهراً تذوّب فيه تجربة الحياة الفردية، إذ يبتدع المؤلّف لنفسه حياة متخيّلة يعيشها نصيّاً. ويمكننا القول هنا، بأنّ التخيل الذاتي يختص برسم حياة متخيّلة مختلفة عن الحياة التي عاشها المؤلّف في الواقع"³.

يُقدّم فانسان كولونا Colonn Vincent⁴ تعريفاً آخر للتخيل، وقد جعله في صلب أيّ مشروع ل(خَيْلنة الذات)، بشرط أن يكون التطابق بين المؤلف والشخصية الرئيسية واضحاً بالنسبة للقارئ على الدوام. فالتخيل الذاتي عنده ممارسةٌ نوعية «من خلالها يخترع الكاتب الشخصية والوجود، وهو يحرص على أن يحفظ لنفسه هُويّته الواقعية (اسمه الحقيقي)». ويُطبّق "كولونا" هذا التعريف بشكلٍ استرجاعيٍّ على أي نصّ ومؤلف من زمن آخر يسمح بالتعرّف عليه داخل الوصف الروائي⁵.

2.1- بين التخيل الذاتي والسيرة الذاتية:

لابد لنا أن نفرق بين التخيل الذاتي والرواية السير ذاتية " فالتخيل الذاتي هو أحداث واقعية تساق في إهاب التخيل، أما الرواية السير ذاتية فهي نص روائي يشتق صاحبه فيه من حياته جزءاً معيناً ويسوقه على لسان شخصية مفارقة للراوي. والفرق بين السيرة الذاتية والتخيل الذاتي أن رواية السيرة الذاتية يكون فيها اسم المؤلف مختلفاً عن اسم الشخصية، كما أن المؤلف يستدعي أحداثاً واقعية معيشة، وينشئ منها تخيلاً. أما في التخيل الذاتي فالشخصية تحمل اسم المؤلف، كما أن المؤلف ينشئ لنفسه مصيراً جديداً يعدل من حين إلى آخر فيه عن معيشه، وربما انمحت فيه الحدود أحياناً بين الواقعي والتخيلي"، أي أنه ليس رواية وليس سيرة ذاتية. وقد اعترف دوبروفسكي في رسالة منه إلى فيليب لوجون، بأنه ابتدع هذا الجنس الأدبي لملاءمة الخانة الفارغة!، فنكون بذلك أمام جنس أدبي أكاديمي، إن صحَّ التعبير، أو هو جنس أدبي أوجده ناقد جامعي على سبيل الثورة على السيرة الذاتية⁶.

يقول في هذا الشأن فيليب لوجون أثناء محاضرة ميشال دولون⁷ له: أن الخطاب السير-ذاتي يقتضي طلباً للاعتراف، وهو ما لا يوجد في التخيل... ثم إن السيرة الذاتية ليست نصاً يلتزم فيه الكاتب بقول الحقيقة فحسب- على عكس التخيل بحيث لا يرتبط كاتبه بأي التزام. ويلقي فيليب لوجون: أن كونستان، وكذا ستانداك وجيد وآخرون، يلعبون على إمكانية التنوع والتجريب على الذات وإبداع وضعيات افتراضية والدفع بها إلى أقصى مدى في هذا الاتجاه - من دون الالتزام بخطاب الحقيقة-، لكن مع إدماج تلك الافتراضات كصور بلاغية ضمن فضاء تمثيلي للذات. وتقتضي منطقة التجريب هذه بعض المسافة، إذ لا يطلب من القارئ تصديق كل ما يروى فيتم بذلك الابتعاد عن مبدأ التصديق المرتبط بالسيرة الذاتية لتطرح على القارئ مسارات لعب. وهو ما أحسن سيرج دوبروفسكي تسميته من خلال لفظ: التخيل الذاتي autofiction.

وقد أبدع دوبروفسكي هذه اللفظة في معنى دقيق ومحدد بخصوص روايته الابن fils⁸.

من هذا المنطلق " يصبح الميثاق السير ذاتي في التخيل الذاتي محرفاً بدعوى عدم وجود تطابق مرجعي بين الأطراف الثلاثة: الكاتب والسارد والشخصية.

3.1- درجة الانزياح عن المرجع (الواقع):

يمكننا أن نعتمد على هذا المعيار للتمييز بين السيرة الذاتية والتخيل الذاتي في مدى اقترابهما من المرجع أو انزياحهما عنه. "تكون السيرة الذاتية وفية للسجل المرجعي (الالتزام الصريح، والصدق، والحقيقة الساذجة، وتطابق الهويات السردية). أما التخيل الذاتي فينزاح عن الواقع، ويعيد تشخيصه بطريقة خيالية، ويتمرد على مواضع الميثاق السيرداتي (الالتزام المصطنع، وتزييف الحقائق المعيشة، وإضفاء التخيل على الذات، وعدم تطابق الهويات السردية)."⁹

4.1- اللاشعور الثقافي:

إن مقارنة مفهوم اللاشعور الثقافي يستدعي أن ننطلق من متتالية مهمة تعرض بشكل مادي مدى التقابل القائم بين الواقع والشعور، الذي يمثل الجانب المرجعي الذي ينطلق منه كل كاتب في عمله "السيرداتي"، والتقابل القائم بين التخيل الذاتي واللاشعور؛ بحيث يمثل هذا الأخير مجموع الخبرات الثقافية المتشكلة عبر مسيرة الفرد في حياته في وسط ثقافي معين، وهو يعتبر بمثابة الواجهة الخلفية الثقافية لللاشعورية للكاتب والتي على أساسها سيتصرف ويفعل ويبعد ويتخيل. مثلما هو مبين في الشكل الآتي :

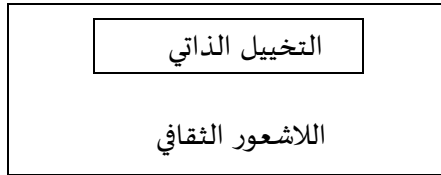
$$\text{الواقع} = \text{الشعور} \neq \text{التخيل الذاتي} = (\text{اللاشعور الثقافية للكاتب})$$
$$\text{الواقع} \neq \text{التخيل الذاتي}$$

وعليه يتجسد التخيل في الرواية بجعل بعض الإمكانيات الخيالية واقعية على الأقل في العالم الروائي السيرداتي، وهو تجسيد لتلك الإمكانيات التي تعذر على المؤلف أن يعيشها ويحققها في واقعة، في هذه الحالة نكون أمام نوع من التداعي الحر، ونوع من تحقيق الرغبات وتحويلها من منطقة اللاشعور إلى منطقة الشعور بفعل الكتابة؛ بحيث تصبح معلومة ومرئية في شكل صور ذهنية مستحضرة في عالم الرواية السيرداتية ويظهر ذلك في رواية "سيرة المنتهى" لواسيني الأعرج "حينما قال: إلى ميترا حتى ولو لم يكن لك أي وجود إلا في كتيبي، وأحلامي وقلبي تحديدا. أنتي الوحيدة التي أستطيع أن أروي لها قصتي، قصتنا، من دون أن أخاف"¹⁰. فالكاتب هنا يستعمل خاصية التخيل

الذاتي بتوجهه على مخاطبة الغائب، ذلك الكائن الذي ليس له وجود في الواقع، ذلك الكائن الخيالي ليروي له قصة حياته.

ما يحدث هنا هو نوع من التحويل والتجسيد والتحقيق للاشعور الثقافي الخاص بهذا الكاتب السيرذاتي في أرضية العمل الروائي، إذا ما يكتبه الكاتب السيرذاتي ما هو إلا نوع من التداعي الحر للاشعور الثقافي. وعليه يمكننا القول: أن من يتكلم في الرواية السيرذاتية ليس هو ذلك الرجل الحقيقي (الكاتب)، أو السارد أو ما ينوب عنه من راوي، بل هي الثقافة، ثقافة ذلك المبدع. في هذه الحالة نكون أمام فكرة أخرى، وهي أن الثقافة تستعمل المؤلف والكتابة في تجسيد وتصوير وتمثيل أنساقها الفكرية والثقافية.

برجوع إلى خاصية التخيل الذاتي فإنه لا يكاد يخرج من مجال وحقل اللاشعور الثقافي الخاص بالكاتب السيرذاتي، ذلك أن التخيل الذاتي ماهو إلا تجسيد جزئي للاشعور الكاتب. الذي يمكننا تجسيده في الشكل الآتي:



5.1- خاصية التحويل الذاتي :

يجب أن نشير هنا إلى أن خاصية التحويل الذاتي هي خاصية نفسية متصلة بفعل التخيل الذاتي أو هي المحرك له. فقد استعمل "سيغموند فرويد" المصطلح "التحويل" ويقصد به تحويل الانفعالات والطاقة النفسية، عن المعاني أو الموضوعات التي كانت متصلة بها في الأصل، ثم ارتباطها بمعان أو موضوعات أخرى، توصف عادة بأنها بديلة لأنها حلت محل المعاني أو الموضوعات الأصلية، والتحويل عملية سيكولوجية تلجأ إليها الطاقة النفسية أو الطاقة الإبداعية لتتجنب ما تجده عادة من مقاومة وكبت، نستطيع بذلك أن تعبّر عن نفسها وأن تنفذ للشعور، فإذا لاقى بعض المعاني مقاومة مستمرة تمنها من الظهور في الشعور، لجأت الطاقة النفسية والإبداعية المتصلة بهذه المعاني إلى النقل والتحويل؛ أي أنها تلجأ إلى الاتصال بمعاني بديلة تكون عادة رموزاً

للمعاني الأصلية¹¹. وهذا نوع من الجنوح إلى التخيل وإقحامه كإمكانية أخرى للوجود في العالم الروائي السير ذاتي.

من هذه النقطة بذات يمكننا القول أن ما لم يستطع المؤلف السير ذاتي أن يحققه في واقعه بفعل مانع معين يحققه بفعل التخيل الذاتي في الرواية السير ذاتية، أو بشكل منفصل عنها في شكل أدبي منفرد، كنوع من المقاومة النفسية والوجودية تتعدى وتخرق وتتجاوز من خلالها هذا الواقع، الذي لم يستطع المؤلف أو المبدع أن يعدل فيه، أو يعايشه، أو يحقق فيه كل رغباته. وهذا ما نجده في رواية "سيرة المنتهى".

2- فعل التخيل الذاتي واللاشعور الثقافي في رواية "سيرة المنتهى" لواسيني الأعرج:

أهم شيء يظهر في فعل التخيل الذاتي في الرواية هو استدعاء وإدماج أحداث لم يعيشها الكاتب أو المؤلف في الواقع والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو، كيف نتعرف على الأحداث التي لم يعيشها المؤلف واسيني الأعرج في حياته الواقعية خصوصاً وأننا لم نشاطره هذه الحياة ؟

يمكننا في هذه الحالة أن نستعين بعنصر التاريخ، فالمؤلف يعيش في الوقت الحاضر، مبدئياً هو ينتمي إلى جيل التسعينات، من هذا التاريخ يمكننا أن نتعرف على الأحداث التي لم يعيشها، وهي الأحداث التي تنتهي إلى ما قبل التسعينات، بحيث يستدعي واسيني في روايته أحداث تنتمي إلى فترة محاكم التفتيش بإسبانيا، وهو يسرد في روايته هذه الأحداث وكأنه مشارك فيها، بل وحتى أنه تم تعذيبه من طرف رجال الدين في ذلك الوقت في قوله (لقد جربوا على جسدي كل وسائلهم الجهنمية لدرجة الصراخ بأعلى صوتي في لحظات اليأس. حررني يا إلهي. حررني من هذه الآلام، إنني فيك. حررني من جسدي، إنني أشعر بالبرد في ظهري. كان الله مغيباً عني ليلتها ولم أرى نوره أبداً، ولكنني رأيت ظلمة مستشرية. فجأة وأنا أسمع لنداءات جسدي الممزق رأيت نورا متسرباً من مكان ما لم أستطع تحديده فجأة لم أعد أشعر بأي شيء من حولي قبل أن يتدخل أنجيلو النصراني. ويخرجني من حمام الموت)¹².

وهنا يستعمل واسيني ضمير المتكلم لكي يسرد ويصف لنا حالته بعد تعذيبه من طرف محاكم التفتيش وهي أحوال في الواقع غير حقيقية لأن واسيني لم يعايش ذلك الزمن. وسرد هذا النوع من الأحداث هو فعل تخيلي.

يمكننا أن نرصد فعل التخيل الذاتي في الرواية عن طريق بعض المحددات وهي: استعمال الكاتب لشخص خيالية مبتدعة، والتعديل أو تزييف في التواريخ، استحضار الأحلام والاستيهام، مساءلة أحداث وقعت في الماضي، استعمال الكاتب لأحداث تتجاوز الإطار الزمني والمكاني الذي عاش فيه، إيراد أماكن خيالية في الرواية أو وصفها، واستثمار السارد لإمكانية الكلام المجهور، وأسلوب النصوص المقدسة والخطابات الترسلية بطريقة ساخرة، وهذا النوع من اللغة يحقق تباعدا بين الأحداث والواقع، وعقد الصلة بين فضاءات أيقونية، ودخول النص في صراع ذاتي ليدحض الحقيقة المطلقة النهائية، ويفرض إيقاع التحول عبر آليات الارتداد والتصحيح والحذف"¹³. وهذا ما استعمله واسيني في رواية سيرة المنتهى. وعليه سأقوم بتحديد فعل التخيل الذاتي في الرواية وفق العناصر الآتية :

1.2- تشييد شخص وهمية :

- ويظهر ذلك في الرواية في قول واسيني :

A Mitra, même si tu n'existes que dans mes livres, mes rêves et, surtout, dans mon coeur. Tu es la seule à qui je peux raconter sans avoir peur, mon histoire, notre histoire.

إلى ميترا حتى ولو لم يكن لكي أي وجود إلا في كتبي، وأحلامي وفي قلبي تحديداً ، أنت الوحيدة التي أستطيع أن أروي لها قصتي، قصتنا، من دون أن أخاف"¹⁴.

- وكذلك اختراع شخصية وهمية أخرى وهي شخصية الجد (جد واسيني) في قوله : " سيدي علي برمضان إلكوخو دي الميريا، المُسمى الروخو. تستحق أكثر من هذا يا جدي الأعظم. أنحنى الآن لظلك العالي الذي لبسته طوال حياتي "¹⁵.

2.2- استعمال خاصية الاستباق والاسترجاع:

ذكر أحداث لم تحدث بعد في شكل أمانى وتكهنات، مثال ذلك قول واسيني في الرواية في شكل حوار لجد الغائب أو الميت: سأكون أسعد حفيد لك وأنا أتياً للقاءك بقلب صغير، وشوق كبير إلى التربة التي شربت من دمك وعرقك، وشكلتني كما اشتهت، ولكني كتبها كما اشتهت"¹⁶.

3.2- استحضار الأحلام والاستهجمات والخيالات :

في قوله : " سمعت نداءاته الخفية (محي الدين ابن عربي) يوم طلب الملاً الأعلى وقيل له بينك وبينه حضرة الكرسي. فطار على أجنحة الكرسي ليغرق في نور حضرة قاب قوسين أو أدنى. اللوح الأعلى. ثم في ظلمة أوحى، حيث تتكشف معميات الأمور ومخبات الأسرار. نام كتاب المعراج على صدري، وغرقت في سكونه التيه بلا هدي ولا نجم ¹⁷.

- وتظهر كذلك خاصية استحضار الأحلام والاستهجمات في الرواية في قول واسيني : " فجأة صرت أحلم بها وبما قرأت ليلاً، عندما أستعد للنوم، أرى كل ما فيها يرفرف حول رأسي ويتحول إلى نساء جميلات وعفاريت وحيوانات خرافية وغابات لا حدود لها وذناب كثيرة - من غير المعقول؟ قرآن لا يشبه القرآن؟ مكتوب بخط غير خطه؟ فيه حديث غريب عن الحب والنساء والسلطين والعفاريت؟ فيه حتى الخرافات التي تشبه ما كانت ترويه لي حنا فاطنة؟ هل يعقل أن يبقى الكتاب في الجامع وهو مكان مقدس؟ أغمضت عيني طويلاً وأنا أفكر كيف أخرج النسخة، قبل أن يوقظني سيدي سعيد من غفوتي " ¹⁸.

4.2- أسلبة النصوص المقدسة والدينية :

ويظهر ذلك في قول السارد: أتذكر اللحظة صدى كلمات جدي المرتعشة في حلقة: لكل شيء قلب. وقلب القرآن يس. من قرأها في نهاره كان من المرزوقين. ومن قرأها في ليله قبل أن ينام، وكل الله به ألف ملك يحفظونه من شر أي شيطان رجيم. و إن مات في يومه أو ليله أدخله الله الجنة. وحضر غسله ثلاثون ألف ملك كلهم يستغفرون له ويشيعونه إلى قبره بالاستغفار له. فإذا أدخل في لحدّه، كانوا في جوف قبره يعبدون الله وثواب عبادتهم له وفتح له في قبره مد البصر، وأومن من ضغط القبر. ولم يزل له في قبره نور ساطع في أعنان السماء، إلى أن يستلمه الله في ملكوته ويغمره بحبه ¹⁹.

وهذا مثال آخر يجسد فيه واسيني حديث النبي صلى الله عليه وسلم، من خلال أسلبة حديث النبي في ما يخص العبور من الصراط المستقيم وتخيله لهذه التجربة و معايشتها في قوله : " سمعت صوت شبيه بصوت حنا فاطنة: امش في خط مستقيم فقط وسترى فجوة النور التي توصلك إلى مبتغاك. لا تغير من خطّك ولا تستسقط في بحر التيه الذي لن تستطيع عبوره أبداً. كما أمر الصوت، مشيت في عمق النفق الطويل حتى

انتفتت الظلمة والنور المعمي للأبصار، فوجدتني وجها لوجه في مواجهة جبل النار تيغراو"²⁰.

- وفي قوله: "سمعت صوت كنسي ممزوج بجرح الترانيل القديمة التي لم أفهم منها إلا اسم سيّدنا المسيح:

Χριστός Ανέστη εκ νεκρών, θανάτω θάνατον πατήσας
και τοις εν τοις μνήμασιν, ζωήν χαρισάμενος²¹

هذا هو اليوم الذي صنعه الرب، فلنفرح ولنتهلل به /المسيح قام من بين الأموات ووطئ الموت بالموت /ووهب الحياة للذين في القبور"²².
5.2- القيام برحلة وهمية :

ويتجسد ذلك في قوله: "نهت السالك لحظتها وهو يسحبني من يدي، بأن أهلي سيكتشفون بسرعة بأني غادرت المكان. ابتسم بإشراق وكأن الأمر لم يكن يتعلق بالموت والحياة. قال: امشي فقط حتى لا أقول لك عُمَ بِحَرَكَ. امشي فقط ولا تلتفت نحوهم كثيرا، هذا يسرق من راحتك ووقتك. اتركهم في حزنهم ولا تحاسب الصادق منهم والمنافق لأننا لا نعرف ما تخفيه السرائر لا عليك يا ابني. هذه صورتك فقط التي أمامهم. جثتك لن تغادر مكانها. ستبقى مسجاة أمامهم، كما هي، ولن يلحظ أحد غيابك"²³. وهنا يتناص واسيني مع ابن عربي في رحلته ويجعل لنفسه قائدا أو دليلا يقوده في رحلته هو "السالك" إلى سيره المنتهى.

- ويتجسد كذلك التخيل الذاتي في رواية سيرة المنتهى بسرد أحداث رحلة خيالية قام بها واسيني نحو شجرة الخلد في قوله: "لأول مرة أشعر بأن المسافة بدأت تقل بيني وبين شجرة الخلد على الرغم من بعدها. رأيت أناسا عديدين يلبسون السواد مثل القساوسة، يتجهون في خط مستقيم باتجاه الشجرة"²⁴.

- ويظهر التخيل في قوله: "تبعته مدام ألونودوثا لورينزو، بلا كلام وعيناوي مرشوقتان في الأعلى الفارغة إلا من ضباب أو شيء يشبه ذلك كان يتكاثف بقوة في الزوايا"²⁵.
6.2- استحضار أماكن خيالية :

بحيث أورد واسيني سيرته الذاتية أمان خيالية لم يزرها من قبل: مثال ذلك سيرة المنتهى، وأمان أخرى مثل: بهو النور، وبوابة العبور، و حائط جبل النار في قوله: "

ومشى سيدي السالك في بهو النور الطويل وقتنا لا أدري هل طال أم قصر، لأن رفقته الطيبة والأمانة اختصرت كل الآلام التي تصحب الفراق، في يده عصاه البيضاء التي كان يحركها أمامه كما يفعل الأعشى البصير، أو صياد بيض الحجل في الحقول الكثيفة بالنباتات المتداخلة، حتى بوابة العبور المؤدية إلى حائط جبل النار²⁶.

- وهنا إحدى استعمالات واسيني لبعض الأمكنة، ولكنها حقيقية كأمكنة موجودة في الواقع، لكن انتسابه لها ليس حقيقي، مثل استعماله لمكتبة في حي البيازين، وهو حي حقيقي موجود في إسبانيا لكن إمكانية امتلاكه لهذه المكتبة ليس حقيقة في قوله: "ورثت عن جدي مكتبة واسعة في حي البيازين. كانت النساء أكثر من الرجال من تشتهين سماع القصص والحكايات. وحتى لا تُسرق المخطوطات الثمينة التي كان جدي يتاجر فيها بين غرناطة وطليلة، أعلنت للجميع: إن من يسرق كتابه يلحقه شره ويصُاب بعدواه"²⁷.

7.2 - الحوار مع شخصيات وهمية :

- استعمل واسيني شخصيات ذات مرجعيات أدبية وأقام معها حوار على سبيل التخيل الذاتي في قوله: "فكرت أن أسأل المرأة عن اسمها، ولكنني لم أتجرأ، إلا أنها هي من تلقاء نفسها قدمت نفسها.

- أنا ألدونثا لورينزو.

- أنا سينو(واسيني)، والروخو دي الميريا جدي كما قلت لك من قبل. لم يهزني اسمها في البداية. لكنني عندما بدأت هسهسة شفرات طواحين الهواء في الدوران من جديد، تذكرت دون كيخوتي، حبيبي في الجنون في زمن يتكرر ولا يتغير، وتذكرت اسم حبيبته تلك التي فشل في التعبير لها عما في قلبه. كان اسمها ألدونثا لورينزو قبل أن يسميها في جنونه دولثينيا الفلاحة المسكينة التي جعل منها أميرة جنونه"²⁸.

- وفي قوله: "عندما دخلت على سرفانتس، رأيته وهو ما يزال يحاول أن يستقيم في جلسته، كأنه وصل هو أيضا لتوه. لم يسبقنا، ولم يتخلف ثانية واحدة عنا. عندما رأيته، أشّر بيده اليمنى أن أجلس"²⁹.

- وكذلك في قوله: "ربت على كتفي ثم هتف في أذني، ولا أظن أن أحدا سمعه غيري: واسيني يا ابني، قلبك كبير وخطرك واسع. أمامك مسالك الأنوار الكثيفة التي تعي الأبصار بقوة.

أعبرها بلا تردد، فأنت سيدّ شأنك، سيخف كل شيء بالتدرج. امش يا ابني ولا تلتفت وراءك" ³⁰.

- مدينة جميلة وأكاد أعرفها بمرتفعاتها ودروبها. بمساجدها وكنائسها وناسها. أراها يا جدي وأسمع أيضا نداءات خفية تأتي من بعيد في شكل كورس جنائزي يا جدي. ربما كانت غرناطة أيا سقوطها. أسمع الجزع، وأرى الخوف في عيون الناس.

- هي عينها يا ابني. المدينة التي سُرقت منها الشهادة ³¹

- وهناك نوع آخر من الحوارات التخيلية التي ضمنها واسيني روايته، وهي حوارات غير حقيقية مع شخصيات حقيقية في الواقع ، مثال ذلك حوار مع الكاتب الاسباني ميغيل دي سرفانتس في قوله له: "لولا دون كيخوتي وقصصك وكتاباتك وأسرّك، لغابت أشياء كثيرة صنعت مخيلتي وصنعت مخيلة المئات من الكتاب والفنانين عبر العالم. ربما لكنت شيئا آخر غير أنا الذي عليه اللحظة، في هذه المغارة التي أطلقت عليها تسمية مونتي سينوس، كما اشتبهت" ³²

8.2 - انعكاس صورة الذات في مرآة التخيل :

وهذا يتجسد من خلال محاورة الذات لذاتها، ورؤية الذات لذاتها في النص السبرذاتي ومثال ذلك قول واسيني: "انسحبت فجأة الأرض من تحت قدمي وشعرت بدوار قاس. ارتعشت كل فرائسي ولم أكن قادرا على التحكم فيها. لم يكن الميت الذي انكشف وجهه كليا عندما طارت الفراشات البيضاء، يُشبهني فقط، ولكنه كان أنا. أنا، واسيني. تماسكت وأنا أبيض على خشبة التابوت مثل طفل خائف يتحسس أي شيء قريب منه، لكي لا يسقط مغشيا عليه. فركت عيني ثانية وثالثة وسابعة. رفعت رأسي نحو الرجل الطويل وكأني أدعوه لينجدني. كانت عيناه ما تزلان مثقلتين بالدموع. قلت في خاطري: لا بد أن يكون التعب هو سبب هذه الرؤى ؟ أغمضت عيني. لكنني عندما فتحتهما، رأيت نفس الملامح. و رأيت اللوح الذي كُتب عليه اسمي، وتاريخ ميلادي، ووفاتي بالعربية واللاتينية . وكلمة صغيرة كنت أكررها دائما: لقد عشتها كما اشتهتني لأنها كانت الأقوى. لم أكن استثناء عظيما في هذه الدنيا، ولم أكن إله صغيرا، لكنني لم أمر على هذه الحياة كقيمة جافة" ³³.

2- مساءلة أحداث تاريخية :

حاول واسيني أن يعيد قراءات تواريخ وأحداث قديمة لم يعيشها ، ولكنه أوردتها في سيرته ليكشف عن حقيقتها وزيف بعض التواريخ القديمة ومثال ذلك في قوله: "حناك ليست مثقفة، ولا عارفة، لكنها تعودت أن تثق في قلبها. لابد أن تسمع لقصة لا نوتشي دِل ري. (La Noche d'el Rio ليلة الوادي بالإسبانية) أكبر حالات القسوة أن تجد نفسك وحيدا، بلا أهل ولا أرض ولا هواء. هل يهْمُك أن تسمعي؟"³⁴ وهذه كلمات تفتح المجال أمام القارئ ليتعرف على هذه الحادثة من سرد الجدة لواسيني، لكن يبقى الشك قائما في وقائع هذه الحادثة، بحيث يمكن أن تكون كذلك من نسج الخيال الواسيني

3. خاتمة:

توصلنا إلى جملة من النتائج كانت أهمها : أن فعل التخيل الذاتي لا يمكن له أن ينفصل عن جنس الرواية السيرية، وحتى تبيننا للقول السائد بأن التخيل الذاتي هو تطور لجنس الرواية السيرية، فليست لدينا أية شجاعة بأن نسّم التخيل الذاتي بسمة الجنس الأدبي المتفرد والقائم بذاته، فهو لا يكاد أن يخرج عن حدود السيرة الذاتية. كما لا يخرج أي إبداع أدبي عن كونه جزء من ثقافة معينة، هي بالأساس ثقافة الكاتب الذي تستنطق مكانه ليبوح بمكنوناته عبر صفحات إبداعه الروائي.

يمكننا أن نُجمل فعل التخيل الذاتي واللاشعور الثقافي في رواية سيرة المنتهى لواسيني في العناصر الآتية: تشييد شخوص وهمية في متن الرواية، استعمال خاصية الاستباق والاسترجاع، واستحضار الأحلام والاستهجمات والخيالات، وأسلوب النصوص المقدسة والدينية، الدخول في موجة من التوهم واستحضار أحداث وهمية والقيام بفعل الرحلة، استحضار أماكن خيالية، والحوار مع شخصيات خيالية وأخرى تاريخية على سبيل استنطاقها، وأخيرا انعكاس صورة الذات في مرآة التخيل.

إلى هذا الحد آن للتخيل الذاتي الواسيني أن يرسو بنا إلى خاتمة مع نهاية القراءة لسيرة المنتهى عشتها كما اشتهتني لتهب لنا عوالم تخيلية تصبح لنا أو نسلّمها ذواتنا لتسكن إلها أثناء زمن القراءة.

*** **

قائمة المراجع :

- سعيد عبد الجبار، من السردية إلى التخيلية ، منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى، الجزائر، 2012 م
- صلاح عيد، التخيل نظرية الشعر العربي، سلسلة الدراسات الإنسانية رقم 4، مكتبة الأدب، القاهرة 2001 م.
- سيفموند فرويد ، أنا و الهو ، ترجمة: محمد عثمان نجاتي، طبعة أولى، القاهرة، 1982 م
- واسيني الأعرج ، سيرة المنتهى عشتها كما اشتيتني ، رواية سيرية ، دار البغدادية للنشر والتوزيع ، الجزائر، 2014 م .
- سمير الغيثي ، مفاهيم سردية ، في ندوة أقامتها وحدة أبحاث السرديات بجامعة الملك سعود ، 1/11/2016.
- من أجل السيرة الذاتية حوار مع فيليب لوجون ، أجرى الحوار ميشيل دولون عن مجلة Magazine littéraire الفرنسية عدد 409، ماي 2002 ترجمة : المبارك الغروسي - 05-02-2008.
- عبد اللطيف الوراري، إشكالية العلاقة بين المؤلف والشخصية . التخيل الذاتي بين كولونا ودوبروفسكي، موقع. 11-22-2016. www.arab-ewriters.com/chat :
- محمد الداوي ، منزلة "التخيل الذاتي" في المشهد الأدبي- موقع الكاتب محمد الداوي: 2013-03-22 www.ohameddahui.com/hh// - د. ص .

الهوامش:

- ¹ - سعيد عبد الجبار، من السردية إلى التخيلية ، منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى ، الجزائر، 2012 م ، ص 61.
- ² - المرجع نفسه، ص 41.
- ³ - المرجع نفسه 57.
- ⁴ - فانسان كولونا : ناقد أكاديمي فرنسي قام بدراسة لمفهوم التخيل الذاتي وطوره أو قسمه إلى أربعة أنواع معينة .

⁵ - عبد اللطيف الوراري، إشكالية العلاقة بين المؤلف والشخصية. التخيل الذاتي بين

كولونا ودوبروفسكي ، موقع: 2016-11-22

⁶ - سمير الغيثي ، مفاهيم سردية ، في ندوة أقامتها وحدة أبحاث السرديات بجامعة الملك سعود ، 2016/11/12 م.

⁷ - صحفي فرنسي

⁸ - من أجل السيرة الذاتية حوار مع فيليب لوجون ، أجرى الحوار ميشيل دولون عن مجلة Magazine littéraire الفرنسية عدد 409، ماي 2002 ترجمة : المبارك الغروسي -

2008-02-05 -

⁹ - منزلة "التخيل الذاتي" في المشهد الأدبي- د.محمد الداوي.

¹⁰ - واسيني الأعرج ، سيرة المنتهى عشتها كما اشتهتي ، رواية سيرية ، دار البغدادية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2014م، ص8

¹¹ - سيغموند فرويد، أنا والهو ، ترجمة : محمد عثمان نجاتي ، طبعة أولى، القاهرة ، 1982 ، ص. 34.

¹² - واسيني الأعرج، سيرة المنتهى ، ص 79.

¹³ - محمد الداوي ، منزلة "التخيل الذاتي" في المشهد الأدبي، موقع الكاتب محمد الداوي، 2013-03-22 - د-ص

¹⁴ - واسيني الأعرج ، سيرة المنتهى ، ص 8.

¹⁵ - المرجع نفسه ، ص. 14.

¹⁶ - المرجع نفسه ، ص. 14.

¹⁷ - المرجع نفسه ، ص ، 18.

¹⁸ - المرجع نفسه ، ص 192.

¹⁹ - المرجع نفسه ، ص . 22.

²⁰ - المرجع نفسه ، ص 28.

²¹ - هي كلمات من الإنجيل باللغة العبرية وترجمتها مرفقة بها تعني: هذا هو اليوم الذي صنعه الربّ، فلنفرح ولننتهلل به /المسيح قام من بين الأموات ووطئ الموت بالموث /ووهب الحياة للذين في القبور.

²² - المرجع نفسه .ص.42

²³ - المرجع نفسه ، ص.25.

²⁴ - المرجع نفسه ، ص.225.

²⁵ - المرجع نفسه ، ص.355.

²⁶ - المرجع نفسه ، ص 26.

²⁷ - المرجع نفسه ، ص 49.

²⁸ - المرجع نفسه ، ص 354.

²⁹ - المرجع نفسه ، ص 385.

³⁰ - المرجع نفسه . ص. 27.

³¹ - المرجع نفسه ، ص 47.

³² - المرجع نفسه ، ص. 420.

³³ - المرجع نفسه . ص. 41.

³⁴ - المرجع نفسه . ص 49.